

الفعل التواصلية في النحو العربي عند عبد القاهر الجرجاني

The communicative act in Arabic grammar according to Abd al-Qaher al-Jurjani

د. حورية عيسى*

جامعة تسمسيلات

dr.aissa.houria@gmail.com

تاريخ القبول: 05/28 / النشر: 2023/05/31

تاريخ الاستلام: 2023/01/020

ملخص:

لقد ارتبط النحو العربي بعملية التواصل اللغوي، لأنّ هدف اللّغة الأول هو توصيل معنى واضح من المتكلم إلى المخاطب، و وجد النحو لتأمين نجاح هذه المهمة والحرص على أدائها على أفضل وجه ممكن ولتيسير الفهم. فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتواصل بالمفردات منعزلة عن سياقها اللغوي، لأنّ اللفظ المفرد من حيث هو لا يؤدي إلا معنى مفردا والمعاني المفردة لا تكون لغة وإنما جمل والتراكيب التي تكونها .
ولقد أبرزت الدراسات اللغوية الوظيفية عند عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) أهمية توشي معاني النحو لفهم اللغة فهما عميقا باعتبارها وسيلة للفهم والتواصل .
الكلمات المفتاحية: التواصل اللغوي، النحو العربي ، حسن النظم، توشي معاني النحو، المرسل، المخاطب.

Abstract :

Arabic grammar has been associated with the process of linguistic communication, because the first goal of the language is to deliver a clear meaning from the speaker to the addressee, and grammar was found to secure the success of this task and ensure that it is performed as best as possible and to facilitate understanding. It is not possible in any way to communicate vocabulary isolated from its linguistic context, because the singular word in terms of it only leads to a singular meaning and the singular meanings are not language but sentences and structures that make them up.

The functional linguistic studies of Abd al-Qaher al-Jurjani (d. 471 AH) have highlighted the importance of adopting the meanings of grammar to understand language deeply as a means of understanding and communication.

KeyWords:; Linguistic communication, Arabic grammar, good systems, taking the meanings of grammar, sender, addressee

مقدمة:

يذهب العديد من دارسي اللغة أن عملية التواصل في اللغة هي أهم ظاهرة تسير حياة الإنسان ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وفي كل مناحي الحياة، كون التواصل نشاط يجعل حياة الإنسان أكثر سهولة وتفاعلا مع غيره، ويظل الاتصال هو النشاط الأساسي للإنسان يعبر به عن مشاعره وأفكاره ويستخدمه لتسيير مصالحه (أبوصبح، د.ت.، صفحة 17).

لقد اهتم علماء التراث العربي اهتماما كبيرا بالبحث في هذا العلم، وقد كان ذلك منذ منتصف القرن الأول الهجري، فقد درسوه دراسة مستفيضة حينما ركزوا على ظواهره ووظائفه، وقد قدموا في هذا المجال رؤى مهمة ونظرات ثاقبة، ولا بجانب الصواب إذا قلنا أن علماء التراث أثناء اشتغالهم على علم التواصل قد قدموا بحوثا دقيقة عاجلوا فيها العملية التواصلية مقدمين تصورات مختلفة لوظيفته في حياة الإنسان فرديا وجماعيا، لما أدركوا من أهمية له في حياة الإنسان سواء الاجتماعية أو الفكرية.

ومن أعلام التراث العربي الذين نبهوا لأهمية التواصل في حياة البشر نجد الجاحظ (ت 252هـ)، إذ يعتقد أن الاجتماع ضروري للبشر، وهذا الاجتماع لا يتحقق إلا عن طريق التواصل، والذي يرى أنه غريزة في الإنسان لأنه يخلق وهو في أشد الحاجة للآخر، فالتواصل هو أساس العلاقة الاجتماعية بين الناس، بحيث يربط فئات المجتمع باختلاف طبقاتهم ونجد هذه الإشارة في كتابه البيان والتبيين إذ يقول: «لم يخلق الله تعالى أحد يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له، فأدناهم سخر لأقضاهم، وأصلهم مسير لأولهم وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوق في باب، وأحوج السوق إلى الملوك في باب، وكذلك الغني والفقير والعبد وسيد... ووصل معارفهم بمواقع إليها ومشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها» (الجاحظ، د.ت.، الصفحات 43-44).

وتأسيسا على هذا النص نلاحظ أن الجاحظ أعطى للتواصل أبعادا وأهمية اجتماعيتين، فقد عدّه طريقة مضمونة لنقل التراث الاجتماعي بكل معطياته وعبر الأجيال، إذ به يحقق المجتمع البشري ترابطه وتماسكه، وذلك بنقل القيم ولعقودات جيلا عن جيل، كما أنه بالتواصل تحافظ الأمم على هوياتها وتخليد مآثرها ونقلها من السلف إلى الخلف، ف«كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب، وبشكل من الأشكال وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك ديوانها» (الجاحظ، د.ت.، صفحة 73).

وإذا تناولنا هذا العلم من وجهة علمية لغوية فإن له صلة وثيقة بعلم النحو، إذ إن متخصصي علوم اللغة يرون أن هدف اللغة الرئيس هو توصيل معنى قائم في ذهن المتكلم إلى المخاطب بشكل واضح وصحيح ودقيق،

فقد جاء علم النحو لتأمين هذه المهمة والحرص على أدائها على أفضل وجه ممكن وليحافظ على الملكة (عزوز)، 2005، صفحة 74).

وإذا كانت اللغة تعابير متعددة الأفكار واحدة أو متعددة تراعي الأصول النحوية التي يقتضيها التعبير عن موقف معين، فإن اختيار الألفاظ والصيغ الجمالية الدالة على مثل هذه المواقف يجعل مشاعر المتكلم كما المخاطب عرضة للتجدد، وفي هذا السياق يذهب عز الدين إسماعيل إلى الاعتقاد بأن: «إنّ كل إنسان يتحدث وينبغي أن يتحدث تبعاً للأصداق التي تثيرها الأشياء في روحه أي تبعاً لمشاعره لهذه المشاعر تتكون العبارة وهي في كل حالة عبارة نحوية سليمة ولكنها مختلطة بانفعال خاص ويوم تكون الأصوات لغة أي يوم تكون تعبيراً يكون النحو والانفعال في العبارة شيئاً واحداً» (إسماعيل، 1987، صفحة 333).

لقد اتخذ الدارسون النحو وسيلة من وسائل فهم الأدب، وفي فهم أساليب العرب في فن القول وكذا تذوق ذلك الأدب، وقد كان النحاة في الأصل رواة للشعر قبل تدوينه، وقد كانت مادتهم في صناعة القاعدة النحوية وإقامة اللسان العربي والحفاظ على العربية بشكلها الصحيح يقوم على رواية الشعر وحفظه، وقد كان أهل المرید أو علماء البادية أو فصحاء العرب يقيمون الحلقات فيُضفونُها بمناشدة ومشاهدة الأعراب حفظاً وتدويناً (الفاضلي، 1980، الصفحات 4-5).

ومن الأعلام العرب الذين تناولوا أهمية علم النحو وعلاقته بالعملية التواصلية نجد ابن فارس (ت395هـ) إذ يقول: «من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منْعوت، ولا تَعَجُّب من استفهام، ولا صَدْر من مصدر، ولا نَعْت من توكيد» (بنفارس، 1993، صفحة 57)، ومعنى هذا أن الفهم والإفهام هو الركن الأساسي الذي تقوم عليه العملية التواصلية أو تبليغ المعنى للسامع، وأن الخطأ في التركيب النحوي أو الحركة الإعرابية يؤدي حتماً إلى الخطأ في تحقيق المعنى في ذهن المتلقي، كون اللغة العربية أو أي لغة أخرى تتألف من طائفة ألفاظ دالة على معان ينقلها المتحدث للمتلقي، وسبب نجاح عملية توصيل دلالات تلك الألفاظ للمخاطب هو دقة وصحة ما يقصد المتكلم من معاني إلى المخاطب وأن يعبر عما يريد ويفهم ما يسمع ولا يكون ذلك إلا بمراعاة القواعد النحوية وسنن نظام اللغة (الكریم، 2002، صفحة 9).

وقد عرّف ابن جيّ (ت392هـ) اللّغة في قولته المشهورة أنها: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (ابن جني، د.ت، ج.1، ص.33)، وقد فصل بعد ذلك في أن اللغة تحكمها أربعة أمور وهي:

- اللغة عبارة عن مجموعة أصوات.

- اللغة وسيلة للتعبير.

- اللغة متعلقة بقوم معين.

- تحقق أغراضا اجتماعية (محمد عباس، 1999، ص.18).

فإذا تحققت هذه القضايا في أي لغة نجحت عملية التواصل بين الناس بهذه اللغة.

ومن الدارسين من يرى أن الأصوات: «هي رموز صوتية تنبئ عن مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج إليه الإنسان في حياته، سواء كان احتياجا عاديا كمشؤون الناس في حياتهم، التي يسعى الإعلام لتحقيقها عن طريق وظائفه الأساسية (الإخبار، الإعلام) أو كان احتياج الإنسان ضروريا كاحتياج الإعلامي للتعبير عن الأفكار القائمة في نفسه وتوصيلها إلى الجمهور» (عبد العزيز شرف، 1989، ص.58). بمعنى أنها وسيلة يتبادل عبرها أفراد جماعة معينة أفكارهم ومنافعهم وكل ما يخص حياتهم من جميع مناحيها، وأن هذه الأغراض باختلافها يمكن أن تجسدها في الواقع تلك المعاني والدلالات التي تحملها اللغة وينقلها المتكلم إلى السامع.

وإذا أردنا أن نتعمق أكثر في شرح مقولة ابن جني فإن الأصوات المنطوقة تفهم حتما داخل تركيب نحوي ودلالي، فالكلمات التي ليس لها معاني لا تفهم والمعنى يحدده علم النحو وفي الغالب، أي أن الوصف النحوي هو الذي يحدد العلاقات بين مختلف عناصر الجملة، ويرى الدارسون أن قواعد النحو أو التركيب النحوي ترتكز على قضيتين: إحداهما لغوية تحكمها وضع الملفوظات بطريقة معينة وبصيغة أيضا معينة، وذلك من خلال كل دلالة صوتية خاصة وثانيهما: عقلية، ونقصد المفهوم المترتب على الوضع السالف من وجهة ارتباط كل هيئة تركيبية بدلالة وضعية معينة (محمد حماسة عبد اللطيف، 1968م، ص.39-40).

وهذا يسوقنا إلى القول بارتباط الدلالة بعلم النحو، باعتبار أن الدلالة تعني بالمعنى والمعنى تحقق النظام النحوي.

وقديما أثبت ابن خلدون أنّ للنحو وظيفة، فقد أدرك بذائقتة اللغوية وسليقته السليمة أهمية النحو والإعراب، ثم ميّز تمييزا مستنيرا واعيا بين صناعة الإعراب لذاتها، وبين الملكة اللغوية التي ينبغي العمل من أجل تكوينها في لسان طالب اللغة العربية... فقد جعل هذا العالم علم النحو أحد الأركان الأربعة لعلوم اللسان العربي: (اللغة، النحو، البيان، الأدب)، ورأى أن المُقدّم فيها هو علم النحو، إذ به تُبيّن أحوال المقاصد بالدلالة، ولولاه لجهل أصل الإفادة (ابن خلدون، 1984م، ص.498).

وتأسيسا على هذه الآراء التي عرضناها يمكننا استخلاص أهمية النحو بالنسبة لأي لغة فهو قانونها، ومن خلالها وبالاشتراك مع علم الدلالة يستطيع السامع أن يحقق المعنى في ذهنه، وتحقق بالتالي الإفادة والتواصل، لأن النحو ليس قواعد مجردة تحفظ وتطبق على التراكيب اللغوية، بل هو بحث في المعاني التي تحويها التراكيب الجمالية من جهة، صحتها ودقتها وإبصالتها للفكرة لذهن السامع، وإن كان النحو ينطلق من المباني للوصول إلى غايته من المعاني (أحمد عزوز، 2005، ص.74).

فدراسة النحو ليست غاية في حدّ ذاتها فهي تؤدي دورا مهما في تعليم اللغة وفهمها فهما صحيحا، تهدف إلى إدراك مقاصد الكلام، وفهم ما يُقرأ أو يُسمع، أو يُكتب أو يُتحدّث به فهما صحيحا، تستقر معه المفاهيم في ذهن المؤدي، أو المتلقي وتتضح به المعاني والأفكار وضوحا لا غموض فيه، ولا لبس ولا إبهام لدى المتحدّث، أو المستمع، أو القارئ أو الكاتب (أحمد صومان، 2012م، ص.243).

بين النحو والتواصل اللغوي لدى عبد القاهر الجرجاني :

يعد عبد القاهر من اللغويين الذين أعطوا اهتماما كبيرا لعملية التواصل، ولقد كان حريصا أشد الحرص على البحث في قضية المعاني ودور المتكلم والسامع في بناء المعنى وتلقيه، إذ يرى أن «الدلالة على الشيء لا محالة إعلامك السامع إياه وليس بدليل ما أنت لا تعلم ببدايته المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصوده المخبر من خبره وما هو» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.408).

وهنا يرى الجرجاني لاكتمال العملية التواصلية وجود طرفين مهمين هما المتكلم والسامع، ويرى كذلك أن المتكلم يختار ما يشاء من المعاني ليعبر عنها عبر تركيب جملي، بمعنى أنه يتصور في عقله مجموعة من الدلالات ووفقا لقدرته اللغوية يكون تركيبا صحيحا أو ما اصطلاح عليه الجرجاني نظاما، إثر ذلك يتلفظ به في جمل «لا يتصور أن يعرف للفظ موضع في الجملة من غير أن يعرف معناه والعلم بمواقع المعاني في العقل هو علم بمواقع الألفاظ في الجملة» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.82)، وعليه «فإذا ورد معنى في العقل أولا وجب أن يرد في الجملة أولا كذلك» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.403)، وهذه التراكيب الجمالية تصل إلى ذهن السامع متتالية فتقوم بتحويل تلك المباني إلى معاني «فيعرف غرض المتكلم ومقصوده» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.408). مع العلم أن قضية الاتصال لا تحدث ولا تنجح إلا إذا فهم السامع الغرض الذي يرمي إليه المتكلم، وبذلك تتم العملية التواصلية.

وقد اختصر الباحثون في هذا المجال مراحل هذه العملية فيما يلي:

1. يختار المتكلم ما يشاء من المعاني، فتتعلق دلالات اللفاظ في عقل المتكلم مع معاني النحو.
2. يتلفظ بها في جمل وفقا لقدرته اللغوية.
3. تصل هذه الألفاظ المنطوقة متتابعة إلى السامع.
4. يتلقاها السامع.
5. تقع الألفاظ في سمعه التي تتحول إلى معاني في نفسه أو في الجهاز العصبي المركزي.
6. فإذا نقل المعنى من ذهن المتكلم إلى نظيره لدى السامع وتحدد الغرض صح الاتصال بينهما.

وتأكيدا على ما سبق عرضه نجد عبد القاهر الجرجاني يصرح قائلا: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلام، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها ويجعل هذه بسبب من تلك» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.44).

فنظم الكلام الذي ترجع إليه المزية هو تعلق بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، إن تأليف الكلام وترتيبه بحسب ما يقتضيه علم النحو، تبعا لترتيب معانيه في النفس، فالألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها اللغوية في أنفسنا، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض على طريق مخصوص، أو على وجوه تظهر بها الفائدة (بسيوي عبد الفتاح، 1996، ص.35).

ويذهب الجرجاني إلى الاعتقاد بأن الذي يعطي المزية لخطاب لغوي هو المراعاة لهذه الأسرار والدقائق التي تتعلق بجوهر اللغة لا بمظهرها، آخذاً -عبد القاهر- الارتباطات الدلالية التي يلتحم فيها الدال بالمدلول (التعليق) ضمن شبكة من العلاقات يتجاوز فيها حدود المنطق واللغة إلى المعاني النحوية (عبد الجليل منقور، 2001، ص.35).

وقد ربط الجرجاني أيضاً المعنى بالنحو ويظهر ذلك في إطلاقه لمصطلح (المعاني النحوية للألفاظ) فهو الذي يظهر موقع الكلمة في الجملة، ويبين علاقتها بغيرها من الكلمات المستعملة معها في التركيب، فالمعنى هو طرق التعليق بين الكلمات أو هي المعاني النحوية المفترزة عبر أحكام دقيقة، لتنظيم جملة معينة (أحمد عزوز، 2005، ص.74). فلا يمكن تصور معنى كلمة دون أن يراد تعليقها بمعنى كلمة أخرى ولا يصح أن يتعلق بما الفكر مجرداً من معاني النحو التي هي محصول ذلك التعلق (صالح بلعيد، 1994، ص.202).

ومعنى ذلك أن معنى الفعل يكون في إعماله في اسم، ومعنى الاسم يكون في فعل أو اسم فيه، أي جعله فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأ، أو خبر أو حالاً أو صفة أو ما شابه ذلك. ويضرب الجرجاني لذلك مثالا لبيت امرئ القيس وهو مطلع معلقته:

فَإِنَّا نَبُكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ

فهذه الألفاظ قد رتبت لامرئ القيس من غير قصد منه إلى هذه المعاني، وهو لا يعلم ما نعنيه بقولنا: أن "ففا" و"نبك" جواب الأمر و"ذكر" مضاف إليه لـ"حبيب" و"منزل" معطوف على "حبيب" (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.322).

ويرى بعض الدارسين أن الجرجاني يعطي للنحو الأهمية والقيمة الكبرى في اللغة، إذ إنه آلية تعين على فهم اللغة، بحيث لا نستطيع إنشاء نصوص دون إخضاعها إلى أنظمة نحوية فعالة، فهو جزء أساسي في دراسة النصوص والشعر (عز الدين إسماعيل، 1987، ص.34).

وهذا تماماً ما صرح به هذا العالم إذ يقول: «ذلك لأنه قد علمنا علم ضرورة أنا لو بقينا الدهر الأطول نصمّد ونصوّب ونبحث وننقب، نبتغي كلمة قد اتصلت بصاحبه لها، ولفظة قد انتظمت مع أختها من غير أن نتوخى فيما بينهما معنى من معاني النحو طلبنا ممتنعاً، وثينا مطايا الفكر ضلّلاً» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.366).

ويذهب باحث آخر إلى الاعتقاد بأننا لو جئنا بكلام وأزلنا أجزاءه عن مواضعها ولم نراع في مثل ذلك وضع الكلمة إلى جانب أختها حتى تأخذ مكانها من السياق، ووضعناها وضعاً يمتنع دخول معاني النحو فيها لما تتعلق منك فكر بمعنى كلمة مجردة من معاني النحو، فالنظرية اللغوية التي وضعها عبد القاهر للتركيب قد أتت بنفس الأسس والمبادئ التي قامت عليها الدراسات اللغوية الحديثة، وقد أعطى عبد القاهر للنحو قيمته في اللغة، فهو ليس جملاً جاءت من القواعد الجافة التي تعتنى بضبط أواخر الكلمات وتعيين المبنى منها والمغرب، إنما النحو هو

النظم الذي يكشف عن المعاني ويعطي للألفاظ البعد المطلوب من أجل الإفصاح عن الدلالة (لحسن بلبشير، 2002، ص.213).

وعليه فإن وضوح المعنى يتحدد من خلال قواعد النحو، وبدونها يحدث اللبس أو الغموض، وهذا يجزئنا إلى فشل عملية التواصل، لأن ما يفسد المعنى ليس نقل الكلمات من مكانها في النظم فحسب، وإنما عدم مراعاة أحكام النحو فيما بينها، فما التظم إلا توحي هذه المعاني وتعلق الذهن بها، لذلك فإن عبد القاهر يؤكد أن ليس هناك كلام يوصف بصحة أو فساد إلا ويرجع كله إلى معاني النحو وأحكامه ويدخل في أصل من أصوله (عبد الجليل منقور، 2001، ص.151). وفي هذا الصدد يصرح الجرجاني قائلا: «فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.65).

ومن المؤكد أن تحديد معاني النحو يتجلى في إدراك وجوه وفروق كل أصل من أصول التركيب النحوي، أي فروق اختلاف كل أصل من هذه الأصول، من حيث نمط علاقته بأسماء علاقات الأصول الأخرى، هذا بالإضافة إلى معرفة الفروق والإمكانات العلائقية التي يتوفر عليها كل أصل (أحمد شامية، 1995، ص.134). ويذهب الجرجاني إلى التأكيد على أنّ التركيب المفيد قبل أن يقال من قبل المتكلم يجب أن يخضع لقواعد النحو، لأن علم النحو هو الذي يثبت دلالاته، ويعطي المعاني الوجه الصحيح الذي يقتضيه العقل، «ترى كثيرا منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما تجده للخط والعقد... إنما هو خبر واستخبار وأمر ونهي، ولكل من ذلك لفظ قد وضع له، وجعل دليلا عليه؛ فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، عربية كانت أو فارسية، وعرف المغزى من ذلك من كل لفظة... وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة، لا يعلم أن هاهنا دقائق وأسرار، طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف مستقاهها العقل» (عبد الجليل منقور، 2001، ص.150).

والنحو عند الجرجاني ليس الرفع والنص والجر، وإنما تتخذ منه منطلقا إلى ما هو أعمق للوصول إلى الدلالة، فالنحو إنما يبني على معادن المعاني، وتقدير حال الأوضاع والمبادئ وكيف ستري الأحكام في كل الأنحاء (صالح بلعيد، 1994، ص.150)، لأن اللغة، وعلى الفرد يحن يتكلم أن يرتب كلماته على حسب معانيها في نفسه وعلى الوجه الذي يقتضيه علم النحو، ويشرح عبد القاهر ذلك عندما يربط بين النحو وبين الفكرة في حسن عرضها والوفاء بها، فهو الفيصل بين المعاني، والمعين على استخراجها والمعيار الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه (السيد أحمد خليل، 1968، ص.156).

وكما هو معروف فإن الجرجاني يرى أن الوظيفة الأساسية للكلام هي الإعلام إلا أن طرق وكيفيات هذا الإعلام قد تختلف وتتعدد وتتفاوت وذلك وفق الموقف السياقي والكفاءة اللغوية للمعلم بما بين أساليب النمط الواحد من فروق ينتج عنها تعبير في الغرض الإعلامي (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.332).

وتأسيسا على هذا فعلى ناظم الكلام: «أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق) و(زيد ينطلق) و(ينطلق زيد) و(منطلق زيد) و(زيد المنطلق) و(المنطلق زيد) و(زيد هو المنطلق) و(زيد هو منطلق) وفي "الشرط والجزاء" إلى الوجوه التي تراها في قولك: (إن تخرج أخرج)» و(إن خرجت خرجت) و(إن تخرج فأنا خارج) و(أنا خارج إن خرجت) و(أنا إن خرجت خارج) (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 64). فالجرجاني عندما يستحضر هذه الأمثلة المبينة لمعاني النحو والمبينة على مفهوم فروق الدلالات والتراكيب الذي يعكس مفهومه للمزية، وهو لا يستهدف بهذه الأمثلة إلا الإمكانيات الدلالية التي تتوفر عليها المستوى النحوي من خلال ما تتوفر عليه من إمكانيات علاقوية (طارق النعمان، 2003، ص. 134).

يقول الجرجاني موضحا: «في الحال التي تراها في قولك (جاءني زيد مسرعا) و(جاءني يسرع) و(جاءني وهو مسرع) أو هو يسرع و(جاءني قد أسرع) و(جاءني وقد أسرع)، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويحيى به حيث ينبغي له» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 64).

ومن جهة أخرى فإن الجرجاني يقرر لنا على أنه يجب النظر «في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يحيى ب ما في نفي الحال وبلا إذا أراد نفي الاستقبال، وبإن فيما يترجح بين أن يكون و ألا يكون، وبإذا فيما علم أنه كائن» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 64).

والجرجاني وفي السياق نفسه يطلب من الناظم أن ينظر إلى هذه الفروق، ويستثمرها وفقا لغرضه من الإعلام، وعليه فإن توحي معاني النحو يعني إدراك فروق الدلالة بين الأساليب الممكنة، واستثمارها في تشكيل النظم، وتحقيقه وفقا للغرض (طارق النعمان، 2003، ص. 333).

ولمعالجة هذه الفروق النحوية أو التغلب عليها يعطينا الجرجاني تصورا دقيقا، فالسياق والدلالة اللذان يعكسهما اختيار الإخبار بالاسم منكر، مختلفان عن السياق والدلالة اللذين يعكسها الإخبار بالاسم معرفا (بال التعريف)، فالإثبات في حدا ذاته معنى، والنمط الذي على صيغة الإثبات يؤدي معنى لا يؤديه على صيغة النفي (صالح بلعيد، 1994، ص. 161).

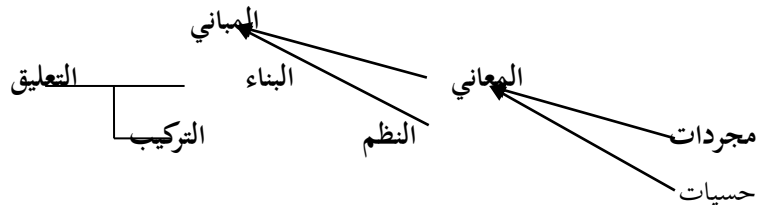
وفي هذا السياق يقول الجرجاني: «ومن فروق الإثبات أنه تقول: "زيد منطلق" و"زيد المنطلق" فيكون ذلك في كل واحد غرض خاص... إذا قلت: "زيد منطلق" كان كلامك مع من لم يعلم أن انطلاقا كان لا من زيد ولا من عمرو فأنت نفيده ذلك ابتداء وإذا قلت: "زيد المنطلق" كان كلامك مع من عرف أن انطلاقا كان أما من زيد وأما من عمرو، فأنت تعلمه أنه كان من زيد دون غيره» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 136).

وفي النمطين الذي رصهما الجرجاني: "زيد منطلق" و"زيد المنطلق" نجد أن لكل نمط غرضا خاصا به لا يوجد في النمط الآخر، ففي الأول الانطلاق نكرة لأنه مجهول بالنسبة للسامع، وفي الثاني الخبر معرفة لأنه معلوم لديه (صالح بلعيد، 1994، ص. 161).

وعليه فإن المساق الإعلامي للإخبار بالنكرة يكون فيه الإعلام في درجته القصوى، لأن (السامع) في حالة جهل كامل بكل من الواقعة التي يتضمنها الإخبار، ويمن تختص به على حد سواء، بينما يكون السياق الإعلامي للإخبار (بال تعريف) سياق معرفة ناقصة، حيث يكون (السامع) عالماً بالواقعة التي يتضمنها الخبر على نحو مؤكد، وجاهلاً تماماً بمن تختص، أو ذا معرفة مشوشة حيث يكون عالماً بالواقعة وغير متيقن مما إذا كانت تختص بـ"س" أو "ص" (طارق النعمان، 2003، ص.342).

وحتماً فإن هذه الاختلافات قد نتجت عن نمط الإثبات، كما أن لها تأثيراً نفسياً لطابع التعبير أثناء السياق الكلامي، فالقول بأنماط المبتدأ أو الخبر يفيد ثبوت المعنى (صالح بلعيد، 1994، ص.162). وعلم النحو لدى الجرجاني وقوانينه هو تلك العلاقات بين المفردات والتراكيب، وما يكمن وراء التعبيرات والصيغ من مزايا وفضائل، بجانب الصحة والسلامة، في محاولة لتقعيد نظرية لغوية في فهم الأسلوب، كما أنه تمكن من الوصول إلى جوانب مهمة في التراكيب، في ضوء مفهومه للنحو (أحمد عزوز، 2005، ص.13). وعليه فلا معنى للنظم غير توحي معاني النحو، فإذا أهمل هذه الجوانب «لم تكن صنعت شيئاً تدعى به مؤلفاً» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.283).

يقول تمام حسان: «لقد صرح أبو البلاغة عبد القاهر الجرجاني بالعلاقة بين النحو والمعاني، فأنشأ فطرة النظم ونسبه إلى المعاني وجعل المعاني المنظومة هي معاني النحو ووضع لنظريته نموذجاً يمكن عرضه (بحسب تصوري له) على النحو التالي:



فالنظم نظم المعاني في النفس والبناء نسبة مبنى صرفي مجرد إلى كل معنى، كأن ننسب إلى الفاعلية اسماً مرفوعاً وإلى المفعولية اسماً منصوباً، بقطع النظر عن أمثلة الأسماء كزيد وعمرو، فإذا تمّ هذا الاختيار المجرد تلتها الأمثلة التي تنتمي إلى المباني المذكورة وجاء دور الترتيب، فترتب الأمثلة بحسب مواقعها من أنماط الجملة بحيث لا يتقدم ما يستحق ولا يتأخر ما يستحق التقدم ثم يقوم التعليق يربط هذه العناصر، هذا هو الفهم الذي أقام عليه عبد القاهر هذه المسألة (تمام حسان، 2000، ص.342). فما قدمه لنا تمام حسان يضيف إلى النظم عناصر لا تكون إلا في النحو كالبناء والترتيب والتعليق، وهو الأمر الذي يربط بين النحو والمعنى (تمام حسان، 2000، ص.349).

فالجرجاني يرى أن الأهمية ليست في الألفاظ منفردة، بل المزية كل المزية في علاقة الألفاظ فيما بينها، وهو بهذه الفكرة يكون قد سبق بقرون ما توصل إليه علم اللغة في أوروبا في العصر الحديث، فقد فطن إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل هي مجموعة من العلاقات والروابط وهو منهج النحو عنده وطريقة فهمه لمعانيه أنه

لم يقف بالنحو عند الحكم بالصحة أو الفساد، بل تعداه وتجاوزه إلى التدوق، وتعليل الجودة أو عدمها(محمد مندور، 1995، ص.343).

إذا وحسب ما يؤسس له الجرجاني فإن النحو هو الهيكل الأساسي للجملة أو النظم، لأنه يتعلق بالأبنية التركيبية المؤلفة من الأبنية الإفرادية، والبلاغة لا تكون إلا ضمن تركيب خاصا تتحقق إلا بتعلق النحو إذ النظم مجاله النحو(صالح بلعيد، 1994، ص.44).

والنحو بهذا المفهوم لا يمكن أن نعتبره واعد شكلية فقط، بل ترتبط به معاني تظهر في العلاقات المختلفة، التي تتحدد على ضوئها معاني الكلام، أي أغراض المتكلم الذي يأخذه بالحسبان حال السامع وحاجته(صالح بلعيد، 1994، ص.69).

فالألفاظ حسبه مستغلة على معانيها ولا يمكن فتحها إلا بالإعراب وأن الدلالات كامنة فيها فيستخرجها النحو، وعلم النحو لديه هو المعيار الرئيس الذي به نفرق بين صحيح الكلام وخاطئه.

والإعراب لدى الجرجاني في حقيقته متصل بالمعاني لا بالألفاظ، وأن اختلاف الحركات الإعرابية هو أساسا إظهار للمعاني لأن «اختلاف الحركة، وكونه مرة ضمة وأخرى فتحة وثالثة كسرة، ليدل هذا الاختلاف على معان مختلفة، إعراب وليس نفس الحركة بإعراب، ألا ترى أنها إذا وجدت، ولم يوجد الاختلاف لم تكن الكلمة معربة»(عبد القاهر الجرجاني، 1982، ج.1، ص.92).

ومفهوم الإعراب عنده هو تلك الحركات التي تلحق أواخر الكلمات العربية من رفع ونصب وجر وحزم، وهي الوحيدة التي تفرق بين المعاني المتكافئة في اللفظ والمتعلقة على نفسها، ومفاد ذلك أنه أي خطأ يمس الحركة الإعرابية في كلمة من الكلمات التي تنظم في رسالة ما، يؤدي إلى خطأ في توصيل المعنى من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع، فنفس عملية الاتصال بذلك، لأن مدر هذه الأخيرة هو تبليغ المعنى، ولا يكون ذلك إلا بمراجعة هذه القواعد (لحسن بلبشير، 2002، ص.218).

إن العملية الإبداعية لدى الجرجاني لا تتم برصف الكلام بعضه إلى بعض، بل يتم ذلك بتوخي المعاني النحوية، فهي في رأيه سر جمال اللغة ومتمعتها والنحو هو الكاشف الحقيقي للمعاني وأغراضها، وهو الذي يشحن الألفاظ بالدلالات قصد الإفصاح والتوصيل للمعاني المطلوبة، ويرجع الجرجاني سبب فساد الكلام وعدم بلاغته وفصاحته إلى عدم مراعاة الأحكام النحوية، وإذا ركزنا قليلا في قضية توخي معاني النحو فإن الجرجاني يعتقد أنه ليس هناك كلام يمكننا أن نصفه بالصحة أو الفساد إلا ومرّد ذلك إلى معاني النحو أو أحكامه، وفي هذا الصدد يقول: «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فعلا فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها»(عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص.64). إذا«فالنحو هو الفصيل بين المعاني، والمعين على استخراجها، والمعيار الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، وهو في هذا يربط بينه وبين الفكرة (الرسالة) في حسن عرضها والوفاء بها»(السيد أحمد خليل، 1968، ص.56).

ويربط الجرجاني بين الإفهام أو الإبلاغ أو إيصال الرسالة والذي عبر عليه بالنظم وبين علم النحو إذ يعتقد أن النظم هو تأليف الكلام، وترتيبه بحسب ما يقتضيه علم النحو تبعاً لترتيب معانيه في النفس، إذ أن الألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها اللغوية في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض على طريقة مخصوص أو على وجوه تظهر بها الفائدة (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 415).

والمقصود من توخي معاني النحو لدى الجرجاني في العملية التواصلية هو إحداث كلام تستخدمه الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها، والتي تحل هي الأخرى هذه العمليات في أذهانها (بسيوني عبد الفتاح، 1996، ص. 36).

وإذا كان النظم الصحيح لدى الجرجاني ينحصر في توخي معاني النحو فإن ذلك يقوم على ترتيب الكلام حسب مضامينه ودلالاته في النفس ترتيباً ينشأ عنه معان إضافية، وهي معان ترجع إلى الإسناد، فالمتكلم ينظم أفكاره، ويرتبها في ذهنه، وينسقها، ثم يأتي دور الألفاظ فيكون ترتيبها على حسب ترتيب الأفكار في الذهن، وفقاً لقواعد النحو الذي يبحث في العلاقات بين المفردات والتراكيب، وما يكمن وراء التعبيرات والصيغ من مزايا، تجري في ذهن المتكلم فترتب في نفسه أفكار وخواطر تعينه على الكلام الصحيح، وتعين السامع على الفهم، وهذا قمة ما تسمو إليه عملية الاتصال اللغوي (بسيوني عبد الفتاح، 1996، ص. 45).

ومن الأمثلة التي ضربها الجرجاني في هذه القضية قول أبي تمام:

لَعَابُ الْأَفَاعِيِ الْفَاتِلَاتُ لَعَابُهُ أَرِي الْجِنِّي اشْتَارَتْهُ أَيْدِ الْعَوَاسِلِ

فيقول: «لو أنك قدرت أن "لعاب الأفاعي" مبتدأ ولعابه خبر كما يوهم الظاهر، أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصورة التي أراد فيه، وذلك أن الغرض أن يشبهه مداده بأري الجنبي على معنى أنه إذ كتب في العطايا، والصلاة، وأوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقه عندها، وأدخل السرور واللذة عليها، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان "لعابه" مبتدأ و"لعاب الأفاعي" خبراً، فإما تقديره أن يكون "لعاب الأفاعي" مبتدأ و"لعابه" خبراً فيبطل ذلك، ويمنع منه البتة ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مرادفاً في مثل غرض أبي تمام، وهو أن يكون أراد أن يشبه لعاب الأفاعي بالمراد وشبه كذلك الأري به» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 284).

معنى هذا أن النص وضع الكلمات في النظم يكون بتخير المواضع لها، وتتم فيها الصنعة، حسب ما يتوخى فيها من معاني النحو، فليس نقل الكلمات يفسد المعنى فحسب، وإنما عدم مراعاة أحكام النحو فيما بينها، فما النظم في الحقيقة إلا توخي هذه المعاني وتعلق الذهن بها (أحمد شامية، 1995، ص. 134).

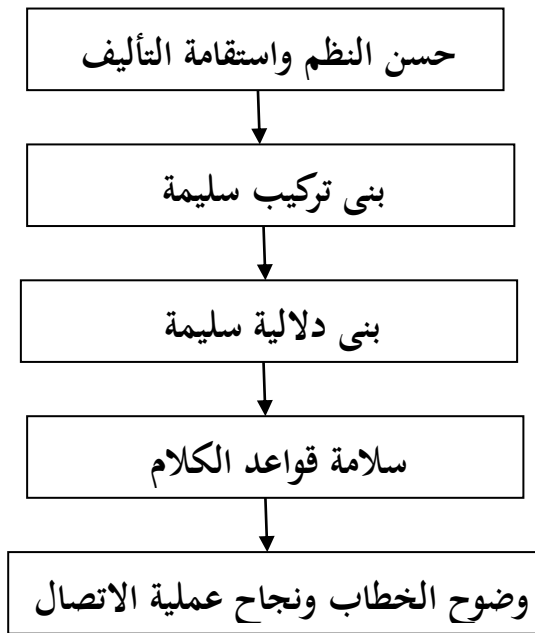
ونعود ونؤكد أن النحو لدى الجرجاني ليس قواعد شكلية بل ترتبط به معاني تظهر في العلاقات المختلفة التي تربط بها، وتتحدد على ضوءها معاني الكلام، أي أغراض المتكلم التي يأخذ فيها حال السامع وحاجته (صالح بلعيد، 1994، ص. 69).

لقد أكد الجرجاني في أكثر من موضع أن نجاح العملية التواصلية بين الباث والمتلقي لا يمكن أن تتحقق إلا بسلامة القاعدة الكلامية الصحيحة والدقيقة والتي تمثلها القاعدة النحوية، وقد ربط الجرجاني بين المستوى

التركيبى والمستوى الدلالي في إيصال الرسالة للمتلقى، وذهب إلى الاعتقاد بأن سلامة اللغة تقتضي سلامة هذه المستويات، إذ يعتبر أن أحد العوامل الهامة في إنشاء الرسالة الناجحة، القدرة على التوفيق بين مستواها ومحتواها، ومستوى المتلقي هو حسن التأليف بين أجزاء الرسالة ونظم كلماتها، وهما قاعدتان تنهضان بعملية توصيل المعنى، ونجاح عملية الاتصال، إذ يتعين على المتكلم حسن التركيب لإفهام ولتسهيل عملية الفهم، فقال: «إذا كان النظم سويا والتأليف مستقيما كان وصول المعنى إلى قلبك تلو الوصول اللفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع، وبقيت في المعنى تطلب وتتعب فيه» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 210).

وكما سبقت الإشارة فإن المستوى النحوي - كما يصطلح عليه في الدراسات المعاصرة - والمتمثل في القواعد والقوانين التي وضعها النحاة أو الإعراب فإنه يوضح المعنى ويساعد على تحقيق العملية التواصلية بين طرفي الكلام (الباث والمتلقي)، وذلك من خلال تحديد الوظيفة النحوية للملفوظ في الجملة وموقعه فيها، ولتوضيح ذلك وجدناه يقول: «الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيه حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه» (عبد القاهر الجرجاني، د.ت. ص. 23).

وهذا ما يمكن أن نوضحه في المخطط:



خاتمة:

من أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

- إنَّ النحو بوصفه قوانين اللغة في تصرفها بين الأغراض والمقاصد من الطبيعي أن يكون محققا لتلك الوظيفة التواصلية. لأنه يكسب صاحبها القدرة على استعمال القواعد في الموقف اللغوي وتطبيقها، وتصون اللسان عن الخطأ، وتحفظ القلم من الزلل.

- واعتبر عبد القاهر الجرجاني أنّ المعاني هي جوهر تأليف الكلام وإتقان النظم، فأكد على أنّ الوظيفة الأساسية للنحو هي تحقيق التواصل، وأنّ النظم لا يتم بوضع عناصره دون توحي المعاني النحوية وإحداث صياغة واضحة للكلم، تجري في ذهن المتكلم بلغة ما لإحداث كلام تستخدمه الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها والتي تحمل هي الأخرى هذه العمليات في أذهانها .

قائمة المصادر والمراجع :

1. ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر وما عاصروهم من ذوي الأكر، الدار التونسية، الجزائر، 1984م.
2. ابن فارس، الصحابي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح. عمر الفاروق الطّباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط.1، 1993.
3. أحمد شامية، خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995
4. أحمد صومان، أساليب تدريس اللغة العربية، دار هوان للنشر، عمان، الأردن، 2012م.
5. أحمد عزوز، المدارس اللسانية، أعلامها، مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلية، دار الأديب للنشر والتوزيع، السانبا وهران، الجزائر، 2005 .
6. أعلام في النحو العربي، الشيخ أبو الحسن الفاضلي، منشورات دار الجاحظ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، دط، 1400هـ/1980م.
7. بسيوني عبد الفتاح، دراسات بلاغية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر . ط1، 1996
8. تمام حسان، الأصول، دراسة إستيمولوجية للفكر العربي، عالم الكتب، 2000، محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، دار النهضة للنشر والطباعة والتوزيع، مصر ط1، 1995.
9. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق : محمد هارون، دار الجيل بيروت ج1
10. السيد أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة للنشر بيروت، لبنان 1968.
11. صالح بلعيد، التراكم النحوية وسياقاتها المختلفة عند الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط5، 1994
12. صالح خليل أبو صبيح، نصوص تراثية في ضوء علم الاتصال المعاصر، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع.
13. طارق النعمان، اللفظ والمعنى بين الإيديولوجية والتأسيس المعرفي للعلم، مكتبة الأنجلو المصرية، 2003.
14. عبد الجليل منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، دراسة من منشورات الكتاب العربي 2001.
15. عبد القاهر الجرجاني، المقتصد، في شرح الإيضاح تحقيق كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982، ج.1.

16. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه: الإمام عبده، الكتب العلمية بيروت .
17. عبد الله جاد الكريم، المعنى والنحو، مكتبة الآداب ، ط1، القاهرة، 2002 .
18. عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة.
19. عز الدين إسماعيل، معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول، العدد الثالث، 1987.
20. علي النجار، الخصائص، ابن جني، تحقيق، دار الهدى للنشر، بيروت، ج.1.
21. لحسن بلبيشير، التركيب وعلاقته بالنحو، مجلة المصطلح، حلقة تلمسان، العدد 1 مارس 2002 .
22. محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1968م.
23. محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دراسة مقارنة، دار الفكر، دمشق، ط.1، 1999.